القسم الثانى

الفتح العربى الإسلامى

من عمر بن الخطاب إلى السلطان سليم

٢٥ - العرب فى فلسطين قبل الإسلام

إن كل من شغل بعلم التاريخ يتجاذبه عاملان قويان. أولهما عام وهو حب العلم وثانيهما خاص وهو رغبة الاطلاع على تاريخ قومه وبلاده. فالقسم الأول من هذا الموجز يهم العربى الذى طمع فى العلم ورغب فيه. أما القسم الثانى فمن الواجب المتحتم على كل عربى أن يمزجه بدمه ونفسه لارتباط تاريخ بلاده بأمته الذى ينعش نفسه ويحييها، فإنى أعجب كيف يكون المرء وطنيًا إذا لم يعرف تاريخ بلاده وسيرة أمته وأبطالها أو لم يتعلم لغتها وآدابها؟. فتصديرنا هذا الموجز بتاريخ الأمم الأخرى ليس لأنها أقدم من أمتنا العربية فى سواحل فلسطين الشرقية والجنوبية. بل لكونها ملأت صحف تاريخ البلاد أكثر من سواها فالعرب منذ القدم سكنوا فلسطين وكانت فيها مرابعهم ومصايفهم وشيدت فيها منازلهم وحكوماتهم وهذه نبذة مختصرة عن العرب قبل الإسلام فى فلسطين نؤيد بها حجتنا:

١ - ورد فى التواريخ الموثوق بها أن نرام سين بن سرجون ملك الكلدان غزا فلسطين سنة ٣٨٠٠ ق م. وصادف فى سينا حكومة عربية. ثم حارب قبيلة مقان «معان» العربية وأسر أميرها وقد ظهر فى آثار بابل ما يثبت هذا القول.

٢ - أن سرجون الثانى غزا عرب البادية الذين تعدوا على بلاد السامرة وأخضع قبائلهم ومنها ثمود وهم ميديان «مدين» ومساكنهم شرقى الأردن وحارب عباديد وأخذ منهم طائفة وأسكنها فى بلاد السامرة.

٣ – فى القرن الثامن ق.م. أخضع تغلث فلصر عرب البادية بين فلسطين ومصر وكانت ملكتهم حبيبة فعزلها وولى مكانها أحد رؤسائهم.

٤ – لما جاء الإسكندر إلى فلسطين وحاصر غزة كانت حاميتها عربًا فقاومته أشد المقاومة.

٥ – بشّر أحد تلامذة المسيح بلغات عديدة منها اللغة العربية كما ورد فى أعمال الرسل ص ٢ : ١١.

٦ – كان الحارث حاكم دمشق عربيًا لما دخلها بولس الرسول كما ورد فى رسالته إلى أهل مدينة كورنثوس (كونثوس ص ١١ : ٣٢).

٧ – لما جاء تيطس لفتح القدس كان معه الحارث ملك العرب يقود فرقة عربية.

٨ – التجأ هركانوس المكابى إلى الحارث ملك العرب فأنجده وساعده عَلَى أخيه ارستوبولس.

٩ – إن فيلبس الرومانى الذى صار إمبراطورًا فى رومية سنة ٢٤٤ب.م. كان عربيًا من بصرى حوران (راجع جبون) Every man's Encyclopedia Vol. 10, p 298.

١٠ – حكومة تدمر وتمدنها وتجارتها ونفوذها فى الشرق والبلاد العربية (راجع زيدان التمدن الإسلامى).

١١ – حكومة بطرا «الحجر» فى الجنوب الشرقى من فلسطين إلى خليج العقبة وقد حكموا فلسطين وسورية.

١٢ – الغساسنة حكام الشام وحوران وشرقى الأردن الذين عمروا المدن وشادوا القصور والقلاع وهى دولة عربية مسيحية.

ومن استقرأ صفحات التواريخ القديمة وجد كلمة «العرب» تجول فى غزواتهم المظفرة ومحارباتهم الكثيرة فى فلسطين وحسبنا دليلاً أن هاشما جد أبى النبى «ﷺ» مات فى غزة ودفن فيها وإننا نعرض عن دول اللخميين والهيكسوس

وحمورابى واليمن لأنها بعيدة عن بلادنا ولا اتصال لنا بهم. ولكنا نقول: إن سكان فلسطين القدماء كالكنعانيين والعمالقة الذين أتوا فلسطين من جزيرة العرب ربما كانوا من طوائف العرب البائدة طسم وجديس إذ يصعب عَلَى الفكر التصديق بانقراض قبائل كبيرة برمتها. ولكن يجوز أن تستحيل إلى غيرها وتندغم فيها. فيظهر مما تقدم أن العرب لم يفيضوا إلى فلسطين دفعة واحدة بل دخلوها تدريجاً ثم تدفقوا فى عهد الفتح الإسلامى وهذا يحملنا عَلَى الترجيح أن مجىء كل فرد أو قبيلة عربية إلى هذه البلاد كان توطئة وتمهيدًا للفتح الأخير وفى هذه السطور دليل كافٍ عَلَى أن العرب سكنوا فلسطين قديمًا وشاركوا بها غيرهم قبل الفتح الإسلامى وتمتعوا بها بعده.. والمستقبل يتوقف عَلَى نشاط الأمة واستعدادها، يمليه الأفراد عَلَى مدوّنى التاريخ فلنحذر أن يكون شرًا.

٢٦ - النهضة الإسلامية

كان العرب قبل الإسلام مختلفى الاعتقادات ومتفرقى النزعات فمنهم الموحد والمشرك والصابئى وعابد الأصنام ولكنهم أجمعوا عَلَى احترام مكة المقدسة فكانوا إذا حجوا إليها يطوفون حولها وينزعون سلاحهم فلا يحاربون فيها ولا فى أشهرهم الحرم وقد سموا أيام الحرب التى حدثت فى إحرامهم «الفجار» لأنهم ارتكبوا فيها فجرًا. فيظهر أن العرب كانوا وقتئذ فى بدء تطور جديد فنفوسهم تتحفز للنهوض وتحركها حروبهم الداخلية وتعديات جيرانهم الفرس والأحباش على اليمن ووقعة ذى قار وانتصار العرب من الفرس كل هذا يدل على تمخض فكرى وغليان عقلى وتأهب للانتقال السياسى والدينى الذى يطرأ عَلَى الأمم وتلا ذلك ولادة محمد «ﷺ» فى سنة ٥٧٠ ب.م. فى مكة من قبيلة قريش وهى من أشرف قبائل العرب ولها سدانة الكعبة فيتم صغيرا وكفله جده عبد المطلب ثم عمه أبو طالب فاشتهر بالأمانة والخلق الطيب فسمى بالصادق الأمين فتاجر بأموال السيدة خديجة بين الحجاز والشام على حصة من الربح فأرضاها بمعاملته وأعجبت به فخطبها وتزوجها وانتفع بمالها.

كان فى نفس محمد أسرار محجوبة تحركها العوامل والبواعث الخارجية فتثيرها ثم تخمد إلى أن بلغ من العمر أربعين سنة وبعثه الله نبيًا فبث دعوته ثلاث سنوات بين أهله وعشيرته الأقربين فأسلم له نفر وكان يجتمع بهم خفية فى دار الأرقم المخزومى إلى أن أسلم عمر بن الخطاب فقال لهم «علام نخفى ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل» فأجابه النبى ﷺ إنا قليل وقد رأيت ما لقينا فقال له عمر: والذى بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيهِ بالإيمان فخرج النبى فى صفين من المسلمين حتى دخلوا المسجد فلقبه النبى «ﷺ» الفاروق لأنهُ فرق بين الحق والباطل فنزلت الآية ﴿ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] فجهر النبى ﷺ بدعوتهِ وطاف على القبائل وهو يتلو عليهم ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[2] فاضطهدته قريش وطفقوا يكرهون من آمن به على ترك دينهم بدفنهم فى الرمل أحياءً ويسومونهم أنواع العذاب وهم عَلَى عقيدتهم ثابتون وإن أعظم شرط لنجاح المبادئ الجديدة وطنية كانت أو دينية الجزم بصحة المذهب والثبات عليه مهما اعتراه من المحن.

ظلت الدعوة الإسلامية ضعيفة حتى آمن بها أخوال النبى ﷺ الأنصار ونصروه عصبية وحبًا فى الدين ومزاحمة لقريش عَلَّهُم يحولون وجهة الحج إلى مدينتهم لأن أحد أبطالهم أبا الهيثم قال يا رسول الله فهل عنيت إن أظهرك الله عز وجل أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فقال له أنتم منى وأنا منكم أسالم من سالمتم وأحارب من حاربتم. فلما طال بهم العسف هاجروا جميعهم خفية إلى المدينة ليحتموا بالأنصار إلا عمر بن الخطاب فإنهُ تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى فى يده أسهمًا وطاف بالبيت سبعًا وصلى متمكنًا وقال:

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦٤.

(٢) سورة النحل الآية ٩٠.

«شاهت الوجوه لا يرغم الله إلا هذه المعاطس من أراد أن تثكله أمه ويبتم ولده ويرمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى» فما تبعهُ أحد ومن ذلك اليوم الموافق سنة ٦٢٢ بدأ تاريخ الهجرة النبوية فنزلت آيات الجهاد وحدثت المناوشات والسرايا والغزوات فجهز النبى «ﷺ» سنة ٨ هـ جيشًا يبلغ عدده ٣٠٠٠ مقاتل لغزو فلسطين وسورية وأمّر عليهِ مولاه زيد بن حارثة فسار حتى وصل إلى معان فقابلهم الروم بجيش كبير من قبائل العرب المتنصرة لخم وجذام وبلى فتحاربوا فى قرية مشارف ومؤتة(٥) من البلقاء فانكسر المسلمون وهزموا وقتل بضعة من قوادهم منهم جعفر الطيار جدَ آل هاشم فى نابلس فلم ينثنِ عزم النبى «ﷺ» ولم يصبر على تلك الغلبة فسار إلى مكة وفتحها وأسلمت قريش ووفدت إليه أمراء الجزيرة مسلمين مؤمنين بدينه الجديد فكان يُصحبهم بالقرّاء ليفقهوهم فى الدين ويعلموهم الصلاة وقد ساعد عَلَى سرعة انتشار الدين الإسلامى نفوذ حكم الأمير فى قبيلته فإنه عند ما كان يسلم الأمير تتبعه القبيلة بلا عناء فَعَمَّ الإسلام الجزيرة كلها ووجه النبى «ﷺ» نظره لفتح سورية وفلسطين فجهز جيشًا وقاده بنفسه إلى تبوك فصالحه أهل آيلة وأهل مقنا وأكيدر دومة الجندل عَلَى الجزية ولم يصطدم بالروم وانقلب راجعاً ثم جهز جيشًا لثالث مرة سنة ١١ هـ وأمرّ عليه أسامة بن زيد ففاجأته المنية والجيش عَلَى تمام الاستعداد.

وإن محاولة النبى «ﷺ» ثلاث مرات فتح فلسطين وسورية لحجة بالغة علَى تطلعه ورغبته فى ضمها إلى الجزيرة لأنها جناحها وقادمتها العراق.

٢٧ - النبى محمد ﷺ

كان عظيمًا فى نفسهِ أمينًا فى دعوتهِ صادقًا فى نبوتهِ جليًا فى شريعتهِ مصلحًا بأخلاقهِ وتعاليمه جمع كلمة العرب وأزال التفرقة من بينهم برابطة جديدة متينة وهى الإسلام الذى لم يكن مقصورًا على كونه دينا وحسب بل كان

(٥) سميت هذه السرية بسرية مؤتة

رابطة قومية وسياسية واجتماعية، ألف بينهم وقذف بهم إلى المعمور ففتحوه بنواة روحه وغرس عمله وإنا نورد هنا طائفة من القرآن الكريم والحديث الشريف النفيسة المدبجة بالحكمة والفضائل.

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ ﴾ (١) ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (٢).

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ (٣) الدين المعاملة. الدين النصيحة.

﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (٤).

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ (٥)

﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (٦).

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ (٧).

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (٨).

﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾ (٩).

ليس المسلم الذى يشبع ويجوع جاره وقال فى خطبة حجة الوداع: استوصوا بالنساء خيرًا [راجع نموذج الفضائل الإسلامية]. ولما قبض النبى «ﷺ» ارتد

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٨.
(٢) سورة البقرة الآية ١٩٠.
(٣) سورة العصر.
(٤) سورة الشورى الآية ٤٠.
(٥) سورة آل عمران الآية ١٠٤.
(٦) سورة الأنفال الآية ٤٦.
(٧) سورة البقرة الآية ٢٥٦.
(٨) سورة الكهف الآية ٢٩.
(٩) سورة البقرة الآية ٢٦٣.

العرب ورجعوا إلى دينهم القديم لأنهم أسلموا عصبية وتبعوا أمراءهم قبل أن يرسخ الدين فى نفوسهم أو تعرف القبائل ما هو الإسلام فقتلوا المعلمين وطردوا المفقهين وامتنعوا عن أداء الزكاة وادعى كثير منهم النبوة فحاربهم الخليفة أبو بكر حتى ثابوا إلى رشدهم وأذعنوا للإيمان بعد جهاد عنيف.

٢٨ - إنفاذ جيش أسامة

ابتدأ أبو بكر أعماله بأن أنفذ بعث رسول الله «ﷺ» الذى كان مجهزًا بقيادة أسامة بن زيد وعدده بين ٧٠٠ - ١٠٠٠ وزوّده بوصية جليلة وهى صفحة نيرة من أخلاق أبى بكر قال: «لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لله وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له». وقصارى القول أنها خير مثال للوصايا الإنسانية وجديرة بأن تكون قدوة حسنة لقواد جيوش عصرنا المتمدن الذين أمروا بقتل الأطفال وهتك النساء وتخريب البنايات وقطع الأشجار وهدم الكنائس. فسار أسامة بسريته إلى أن وصل أبنى بناحية البلقاء شرقى الأردن وأوقع بقبائل قضاعة ورجع بعد أربعين يومًا. فأظهر أبو بكر الحكمة بإنفاذ جيش أسامة وهو بحاجة لجند يخمد بهم ثورة الردّة ليوهم العرب الذين مر بهم الجيش أن للمسلمين قوة عظيمة لا طاقة لهم بها. وقد خسر العرب فى تحقيق الأهداف المطلوبة فى هذه الغزوات الثلاث ولكن لم تثبط همتهم وكروا بجيش لا بشرذمة طالبين الفتح لا الغارة قاصدين الاستيطان لا الاصطياف.

٢٩ - وقعة اليرموك

صعب عَلَى أبى بكر ظفر الروم بالمسلمين فاستنصر العرب واستجاشهم ووجه خالد بن سعيد بن العاص إلى تيماء فذهب وصدمه الروم بجموع كثيرة أكثرها من العرب المتنصرة بهراء وتنوخ ولخم وسليم وجذام وغسان ونزلوا من دون زيزاء بثلاث مراحل فلما قدم خالد أعروا منازلهم وحطوا بين «فحِل» وزيزاء

والقسطل[٥] وبعد قتال فل جيش خالد وارتد مخذولاً فعزله الخليفة وولى مكانه يزيد بن أبى سفيان ومعه وجوه مكة وأشرافها وغايته البلقاء وعزّزه بثلاثة أمراء وهم (١) عمرو بن العاص ووجهه إلى فلسطين فأخذ عن طريق المعرقة إلى أيله «العقبة» (٢) الوليد بن عقبة ووجهته الأردن ثم استبدله بشرحبيل بن حسنة وسلك طريق تبوك (٣) أبو عبيدة بن الجرّاح وهدفه حمص وطريقه البلقاء وعلياء الشام وأمّر يزيد عَلَى الجميع وزوّده بوصية وهى:

«إنى قد وليتك لأبلوك وأجرّبك فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك وإن أسأت عزلتك.. إذا قدمت عَلَى جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضًا وأصلح نفسك يصلح لك الناس الخ».

فسار الأمراء وأوغلوا بجيوشهم وتغلغلوا فى أحشاء البلاد فنفرت منهم طوالع الروم ظانين أنها غيمة عما قريب تقشع. فلما رأوهم اقتحموا المدن وجاسوا عوراتها هبوا من غفلتهم وجمعوا جيشًا من العساكر والمقاتلة زهاء ١٥٠ ألف مقاتل. ويقول جبون: إنه كان فى هذا الجيش ٦٠ ألف جندى عربى بقيادة جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة. فناجزوا المسلمين وهم متفرقون ليزعزعوا قوتهم ويبلغوا أربهم لأن وقفة قوادهم كانت شبه مثلث رأسه فى البلقاء مع يزيد «لحفظ خط الرجعة» وطرفاه الواحد فى الجنوب الغربى من فلسطين مع ابن العاص والآخر مع أبى عبيدة فى الجنوب الشرقى من حوران وفى الوسط «الأردن» شرحبيل «خط المواصلة» ففطن المسلمون لمقصد الروم وعرفوا نياتهم فأشار عمرو بن العاص بأن توحد القوى ويتراجعوا إلى أطراف سورية ويستشيروا الخليفة. أما أبو عبيدة فرأى مبادرة الروم ومحاربتهم فخالفوه وأجمعوا عَلَى رأى عمرو وعسكروا فى اليرموك[٥] وأرسلوا إلى أبى بكر فأشار عليهم بالاتحاد ريثما

---

(٤) قرى صغيرة متهدمة فى شرقى الأردن قرب مادبا

(٥) هو نهر صغير يصب فى الأردن بعد خروجه من بحيرة طبرية وكلمة يرموك معربة عن اللغة اليونانية «يرومكس» Hieromax

يأتيهم المدد وأمر خالد بن الوليد قائد جيوش العراق أن يأخذ نصف من معه من الجند وينصرف مسرعًا إلى الشام فامتثل الأمر وسار بقطعة من الجيش فمرَّ بتدمر وأغار عَلَى جمع من تغلب وكلب وقاتل بنى مشجعة واتى إلى ثنية العقاب. وأغار عَلَى غسان يوم عيد فصحهم ثم وفد عَلَى المسلمين فى اليرموك فوجد كل أمير يتساند على جنده فقال لهم: إن اليوم يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى أخلصوا جهادكم..» وأشار عليهم بأن يتناوبوا الإمارة العامة فقنعوا منهُ وولوه إياها فعبأهم تعبية فنية «كراديس كراديس». ووضع نفسه فى المقدمة يقودهم إلى الإمام وفى القلب أبا عبيدة وفى الميمنة عمرو بن العاص وشرحبيل وفى الميسرة يزيد بن أبى سفيان والقعقاع بن عمرو. وكان قائد الطلائع قباث بن اشيم والقاصّ أبا سفيان بن حرب يشجع الرجال ويقص عليهم نبأ البطولة والثبات. فلما استعرضوا الروم قال رجل لخالد «ما أكثر الروم وأقل المسلمين»!! فأجابه «ما أكثر المسلمين وأقل الروم إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان» وهنالك كان يستعد الجيشان لمعركة فاصلة فإما أن يفوز المسلمون ويسودوا عَلَى سورية وفلسطين ومن هناك إلى مصر والمغرب والأندلس أو يردهم الروم عَلَى أعقابهم إلى مهدهم وباديتهم. فلما اصطدم العسكران أظهر الروم من البسالة والصبر ما كاد يزيل المسلمين عن مواقفهم لولا أن النساء حملن العصى والرماح والعمد وضربن بها وجوه الخيل إذا لوت وحرضنهم قائلات «إلى أين يا حماة الإسلام» فصمدوا وقد شد الروم عَلَى ميمنتهم فكشفوها وسحقوها ثلاث مرات وهم صابرون وأبو عبيدة يتخطى الصفوف فيشجع الجمع ويضمد جروح الجرحى ويعدهم بالنصر إلى أن فازوا وانسحب الروم من أمامهم معتصمين ببيسان تاركين أسلابهم والغنائم. وقد اختلف المؤرخون فى عدد الجند فقال ابن الأثير إن جنود العرب كانت ٤٦ ألفًا والروم ٢٤٠ ألفًا أى أن الجندى العربى يقابل خمسة من الروم. وقال المطران الدبس فى «موجز تاريخ سورية» إن العرب كانوا ٤٠ ألفًا والروم مئتى ألف ومنهم من بالغ ومنهم من اعتدل والحقيقة أقرب إلى الصحة كلما قل العدد.

كانت هذه المعركة مفتاح النصر ومقدمة للاستيلاء عَلَى سورية وفلسطين وبما أن جميع المعارك الحربية التى حدثت بالقرب من هذه البقعة كانت فاصلة فإنا نورد هنا بعضها.

١ – وقائع مجدّو: بين مصر والعراق وما كان يلحق فلسطين من عواقبها.

٢ – وقعة اليرموك: التى زال بها ملك الروم عن الشرق.

٣ – معركة حطين: بين طبرية والناصرة وهى المعركة التى قضى بها صلاح الدين عَلَى الأفرنج وأخرجهم من فلسطين.

٤ – اصطدام الترك بالمماليك فى اللجون ورجوعهم القهقرى.

٥ – معركة مرج ابن عامر: بين جنين والناصرة التى هزم فيها اللنبى جنود الألمان والأتراك وأسر منهم خمسين ألفًا.

كانت نتائج هذه الملاحم الكبرى فى تلك البقعة الضيقة قاضية وفاصلة بين المتنازعين فمن فاز ملك البلاد ومن غلب عَلَى أمره خسرها ورجع مخذولاً. ولم يك هرقل متوقعًا هذا الانكسار فلما فل جيشه جزع وانسحب إلى شمال سورية وولى أخاه «ثيودور» القيادة العامة وبعث إليه القواد والعساكر وطلب النجدات من قومه ليكرَّ ثانية عَلَى العرب ويجليهم عن البلاد. أما العرب فإنهم ولوا بشير ابن كعب الحميرى مدخل اليرموك كى لا يقطع عليهم العدو خط المواصلة ونشطوا إلى فتح دمشق وقد فاجأتهم وفاة الخليفة أبى بكر واستخلاف أمير المؤمنين عمر. فحاصروا المدينة سبعين يومًا ودخلها خالد عنوة وأبو عبيدة صلحًا. وقد اختلف المؤرخون فى الوقت الذى عزل فيه خالد أكان قبل فتح دمشق أو بعده والأرجح أنه قبله لأن شروط التسليم والمعاهدة ومخابرة الخليفة كانت كلها باسم أبى عبيدة الذى استخلف عَلَى دمشق يزيد بن أبى سفيان وانقلب إلى فحِل (آبل) شرقى الأردن لمحاربة رافضة جيش الرومان الذين آووْا إلى بيسان فوجد المياه والأوحال والمستنقعات محيطة بالمدينة وقد حجزت المسلمين عن التقدم فكتبوا يستشيرون الخليفة ولا نية لهم بأن يرموا إلى منطقة فحِل حتى يأتى جوابه فظن

الروم بهم ضعفًا واغتروهم فوجدوا المسلمين عَلَى حذر وقاتلوهم وهزموهم فغاصت أرجلهم فى الوحل فأتوا عَلَى آخرهم وكان نصرًا مبيناً وسمى ذلك اليوم «ذات الردغة» فانصرف أبو عبيدة بخالد ومن معه إلى حمص. فلنتركه وشأنه ولنذكر ما تم وجرى فى فلسطين.

٣٠ - أجنادين(*)

محل واقع بين بيت جبرين والرملة كما أجمعت على ذلك كتب التاريخ وياقوت وقد اختلف المؤرخون فى وقعة أجنادين، ومن يستقصى التواريخ العربية يشتبه عليه أنه حدث موقعتان متعاقبتان والحقيقة أنها موقعة واحدة لأن العرب لما قدموا البلاد كان كل أمير مستقلاً غير مرتبط بالآخر فانسابوا فى داخل البلاد فلما نشط الروم لمناهضتهم تركوا ما فتحوه وانضموا إلى بعضهم فى اليرموك تحت لواء خالد بن الوليد. وبعد انتصارهم ذهبوا إلى دمشق ففتحوها ثم انتشروا ثانية يفتحون ويغنمون فسار عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة إلى بيسان ففتحاها صلحًا وفتح أبو الأعور السلمى طبرية سنة ١٤هـ سنة ٦٣٧م على صلح دمشق وأن يشاطروا المسلمين المنازل فى المدينة وما أحاط بها مما يصلها لينزل فيها القواد. ثم قصد عمرو أشغال حامية الروم وعساكرهم المرابطة فى المدن المسوّرة خشية اجتماعهم فيؤلفوا قوة كبيرة ورأى أن يناضلهم غير مجتمعين فسرح يزيد بن أبى سفيان أخاه معاوية لحصار قيسارية وانطلق علقمة بن مجزّز لحصار غزة وعلقمة ابن حكيم ومسروق بن فلان العكى لقتال إيليا «القدس» وأبو أيوب المالكى إلى الرملة ونهض هو جنوبًا فأقام على أجنادين وفتحها سنة ١٥هـ سنة٦٣٧م. وقتل فى هذه الوقعة الأمير عون ابن الملك النعمان بن المنذر جد أسرة آرسلان ثم ساحت القواد فى فلسطين ففتحوا غزة واللد وسبسطية ونابلس ويافا وعمواس وبيت جبرين واستعصت الرملة والقدس وقيسارية وعسقلان فاجتمع معظم

(*) نظن ما ورد فى كتب التاريخ كان سهوا وتحديد المكان كان مغلوطًا وربما كانت اجنادين جنين أو اللجون أو طولكرم على حسب ما ورد فى سير الحوادث الدالة على أنها واقعة بعد مرج الروم «ابن عامر» حيث تكثر المياه.

الجيش لحصار القدس وقد بلغ ٣٧ ألف مقاتل وكانت السماء ممطرة فنزل خالد بن الوليد مما يلى باب أريحا وعروة بن مهلهل مما يلى طريق الرملة وواصلوا الحصار أربعة شهور.

٣١ - فتح باب المقدس

عجز الروم وأيقنوا أن دولتهم دالت وأنهم مأخوذون لاسيما والمسلمون يحترمون بيت المقدس ويقدسونها فلا يسمحون بها لغيرهم فتناجوا بينهم وأقروا على التسليم وطلبوا إلى جيش أبى عبيدة أن يصالحهم على صلح أهل مدن الشام وأن يكون المتولى للعقد الخليفة عمر بن الخطاب فكتب إليه بذلك فحضر إلى الجابية وقدم عليه رسل إيليا فتلقاهم المسلمون براية الأمان وصالحوهم على الجزية وأمنوهم على القدس وحيزها والرملة وحيزها وهذه شروط المعاهدة التى كتبت فى الجابية كما أوردها الطبرى وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان:

أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقض منها ولا من حيزها ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم. ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية. ومن أحب من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان.. فمن شاء منهم قعد وعليهم مثل ما على أهل إيليا من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم. وعلى ما فى هذا

الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية كتب سنة ١٥هـ شهد خالد بن الوليد، وعبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبى سفيان » .

أما معاهدة الرملة فهى عين معاهدة بيت المقدس، وقد أورد الأنس الجليل[1] زيادة على هذه العهد منه :

١ - ألاَّ تبنى كنائس ولا تتجدد فى خطط المسلمين إذا هدمت.

٢ - أن يضيفوا المسلمين ثلاثة أيام بلياليها.

٣ - ألاَّ يواروا جاسوساً ولا يكتموا غشًا للمسلمين ولا يمنعوا من أراد الإسلام.

٤ - ألاَّ يبيعوا خمرًا ولا يضروا بأحد من المسلمين.. الخ.

فلعل الزيادة التى ضمها الأنس الجليل للمعاهدة المسطورة فى تاريخ الطبرى هى ذيول أضافها عليها الملوك والخلفاء المتأخرون بحسب الظروف وإلا فالطبرى أولى بدرجها لأن تاريخه مفصل وقد بناه على الإسناد والتحقيق.

وبعد أن أمضى العهدة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شخص إلى بيت المقدس بثيابه البسيطة وموكبه الديموقراطى لا كما نراه من قواد وملوك القرن العشرين الذين لا يسيرون إلا بالقطارات الخاصة أو «الاتوموبيلات» الفخمة بأبهة عظيمة وحاشية مهيبة فقدم المدينة وخيم خارجها إلى أن سلموها فدخلها وزار كنيسة القيامة فلما أدركته الصلاة خرج منها وصلى أمامها حيث كنيسة سيدتنا مريم فأنشئ هناك جامع ولم يصل فى القيامة خشية أن يدعيها المسلمون ويحولوها إلى مسجد.

ثم طلب إلى البطريرك « صفرونيوس » أن يريه مكان هيكل سليمان فذهب وإياه ودله عليه فلما شاهده مزبلة قذرة وأطلالاً دثرة دهش وأخذ يحفن التراب وينحضه بكفيه فتبعه من معه حتى تصبب عرقًا وأمر ببناء مسجد فوق الصخرة

---

(١) لتأليف مجير الدين الحنبلى

فى الحرم الشريف الذى يقدسه جميع مسلمى الأرض ثم أمر علقمة بن مجزز على نصف فلسطين الجنوبى وقاعدته إيليا وعلقمة بن حكيم على نصفها الآخر وعاصمته الرملة ورجع إلى الحجاز عاصمة الخلافة. وبعد سبع سنين فتح معاوية بن أبى سفيان مدينة قيسارية بوشاية رجل يهودى دلّ العرب على نفق فدخلوا منه إلى المدينة وفتحوها وسنة ٢٣هـ فتحت عسقلان ولم يبق للروم مدينة ولا قرية فزال ملكهم عن فلسطين وأصبحت البلاد عربية فى حكومتها وشعبها.

طاعون عمواس

كانت عمواس قرية يزيد بن أبى سفيان وهى اليوم من ناحية بنى مالك تبعد ١٧كيلومترًا إلى الشمال الغربى من القدس انتشر منها الطاعون فمات أمين الأمة الإسلامية أبو عبيدة وأناب مكانه معاذ بن جبل فطعن وكلاهما مقبور فى غوربيسان ويجاورهما قبر شرحبيل بن حسنة. وتوفى أيضًا يزيد بن أبى سفيان. ولما عين عمرو بن العاص أميرًا عامًا للجند أمرهم أن يتفرقوا ويتوزعوا على رؤوس الجبال متباعدين عن بعضهم فخف الوباء وانقطع المرض.

ويقدر مجموع من توفى بهذا الطاعون خمسة وعشرين ألف نفس وليس هذا العدد بكثير لما شاهدناه فى الحرب العظمى.

وفى سنة ٦٣٨م تم للمسلمين الفتح فقسموا البلاد إلى أربع ولايات «أجناد» فكانت فلسطين قسمين :

١ - جند الأردن وعاصمته طبريا وبلادها بيسان وعكا والفولة.

٢ - جند فلسطين وحاضرته الرملة وبلادها القدس وعسقلان وقيسارية وأريحا ويافا وعمان.

٣ - دمشق وبلادها بيروت وصفد وصيدا.

٤ - الثغور التى فصل العباسيون جزءًا منها سنة ١٧٠هـ وسموه العواصم وحاضرتها حمص وحلب وأنطاكية وطرابلس. أما مدينة القدس فكان لها امتيازات خاصة لما لها من الاحترام الدينى فى نفوس المسلمين وقد التبس على

بعض المؤرخين فظنوها مستقلة عن الرملة والحقيقة أنها كانت تابعة إليها وسنة ٢١هـ تعين معاوية والى دمشق والأردن حاكمًا على البلقاء والأردن وفلسطين والسواحل وانطاكية وكليكيا ومعرة النعمان ولما استخلف عثمان أضاف إليه جميع البلاد السورية فانتدب معاوية علقمة بن حكيم الكنانى واليًا لفلسطين وأبا الأعور السلمى للأردن.

٣٢- إدارة البلاد وأسباب نجاح العرب فى فتوحهم

(أ) إدارة البلاد

أبقى العرب البلاد عَلَى ما كانت عليه، فظل أكثر السكان يدينون بدينهم متصلين برئيسهم الرومانى فى القسطنطينية كما يرتبط الآن جميع المسلمين بالخليفة العثمانى ويمارسون لغاتهم. فأهل فلسطين كانوا يتكلمون اليونانية وأهل مصر القبطية وأهل العراق الفارسية واتخذتها الحكومة لغات رسمية فى دواوينها إلى أن ولى الخلافة عبد الملك بن مروان فأبطلها وألغاها وأستبدلها باللغة العربية وضرب الدنانير الإسلامية فأصبحت الحكومة العربية وقتئذ مستقلة استقلالاً اقتصاديًا ولغويًا وسياسيًا. فتهافت الأعجام على تعلم اللغة العربية ليستفيدوا من حرفة الكتابة لأن لغاتهم أهملت فتعربوا ودخل أكثر العجم فى الدين الإسلامى وتدينوا به فأصبحت البلاد عربية إسلامية محضة يتخللها شرذمة قليلة من غير المسلمين.

(ب) أسباب النجاح(٥)

مما يدعو إلى الإعجاب بهمة العرب وإعظامهم تفوقهم على غيرهم بالرغم من عدم انتظامهم فإنهم تغلبوا على الممالك الراقية ودكوا عروش الحكومات المؤسسة التى كان لها الجند المنظم ولديها الحصون المنيعة وبيدها السلاح والذخائر وقد يعلل كثير من المؤرخين هذا النصر وينسبونه إلى عوامل معقولة وأسباب علمية مهدت لهم السبل لد ظلهم حتى أقصى المعمورة وهذه هى الأسباب:

---

(٥) راجع زيدان – تاريخ التمدن الاسلامى .

١ - نشاطهم وخفة أثقالهم واكتفاؤهم بالقليل من الحاجيات ووفرة جمالهم ووسائط نقلهم.

٢ - اعتقادهم المتين في نص الآية ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾[١] ﴿ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[٢] ومن الأحاديث « الجنة تحت ظلال السيوف»[٣].

٣ - مهارتهم وفروسيتهم ونجابة خيلهم وتفوقهم على عدوهم فى المبارزة وإتقانهم رمى النبال.

٤ - عظمة رجال النهضة الإسلامية مثل عمر بن الخطاب وأبى بكر وأبى عبيدة وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومعاوية.. الخ.

٥ - الصبر والمطاولة وقلة حاجتهم للزاد والعلف الذى كان يبهظ عدوهم فيمل القتال قانعًا بالسلامة.

٦ - العصبية الجنسية فإن القبائل العربية المسيحية التى كانت خاضعة إلى الحكم الرومانى الأجنبى صافحت إخوانهم العرب وانضمت إليهم وحاربت معهم الرومان وهنا رجحت جامعة اللغة على جامعة الدين.

٧ - المحافظة على خط الرجعة فإنهم كانوا حريصين على خط رجعتهم حتى لا يقطعها العدو وينطوى عليهم فيأخذهم أسرى.

٨ - ظفر المسلمين بالروم فى واقعة اليرموك فإنه أكسبهم قوة معنوية واحتقروا عدوهم فاستصغروا شأنه وطمعوا فيه.

٩ - ظلم الرومان للسكان وفساد الأحكام حتى نقم الأهالى أحكامهم وملوا ولايتهم وتمنوا تبديلها.

---

(١) سورة المنافقون الآية ١١

(٢) سورة الأعراف الآية ٣٤

(٣) ورد فى سنن الترمذى

١٠ – اليهود فإنهم كانوا آلة نقمة للعرب من الأهالى وأداة انتقام ودليلا للطرق شأنهم مع كل فاتح.

١١ – عدل المسلمين والتسوية بين الناس فلم يكونوا يفرقون بين أمير وحقير ورفيع ووضيع « ديمقراطية بحتة » .

١٢ – استبقاء الناس على ما كانوا عليه فلم يتعرضوا لدينهم أو معاملاتهم أو أحكامهم القضائية والعرقية.

١٣ – وفرة الغنائم فقد فاض على المحاربين بحر من ذهب فكانوا يجنون من فتح البلاد غنى عاجلاً وغنائم جاهزة حتى إن كثيرًا من العرب المنتصرة اعتنقوا الدين الإسلامى وحاربوا حبًا فى المال.

١٤ – ضعف الفرس والرومان باختلافاتهم الداخلية وعدم إخلاص القواد لملوكهم وأمرائهم والذى يقابل بين فتح سورية ومصر وبين فتح العراق يستغرب كيف خضعت الأوليان واستعصت الثالثة وأتعبت المسلمين فظلت بعد فتحها محافظة على لغتها وعاداتها ولم يمض عليها قرن ونصف حتى استبدلت حكومتها الفارسية الوثنية بحكومات فارسية إسلامية فاصطفت الدين فقط وأنفت أن تتعرب كما فعلت الحكومات الأوروبية فإنها تنصرت مع المحافظة على جنسيتها ولغتها والسبب فى ذلك أن دولة الرومان كانت مستعمرة لسورية فلما غلبت انحسرت عن البلاد وظل السكان وأكثرهم العرب فاندغموا فى الحكومة الإسلامية والقومية العربية وأصبحوا أمة واحدة. أما العراق فكانت حكومته فارسية وكان سكانه عجما فلما سقطت دولتهم ظلوا فرسا فاعتنقوا الدين الإسلامى ولكنهم لم ينسوا استقلالهم فتربصوا حتى سنحت لهم الفرصة فاستعادوا ملكهم وقد حاولوا مرات قلب الحكومة العربية فقتلوا عمر بن الخطاب وتحزبوا لآل البيت وساعدوهم فى ثوراتهم ونصروا بنى العباس ولا غرض لهم من كل هذا إلا دك الدولة العربية واسترجاع دولتهم الفارسية.

٣٣ - الفتح العربى الاسلامى والخلفاء الراشدون

شرعت الحكومة العربية توسع حدودها وأطرافها فتجاوزت سورية ومصر وشواطئ افريقية الشمالية والعراق وإيران والأفغان إلى أن توفى عمر بن الخطاب وانتخب عثمان بن عفان فضعف عن ضبط البلاد لتغير الأحوال وتفرق النزعات والآراء فهمّ بادارة المملكة كما يريد مروان بن الحكم ومعاوية بن ابى سفيان فأخذ برأيهما وولى أهله الأمصار وتعصب لقومه فعزل أهل السابقة فى الاسلام والشهرة فى الفتوح. فاغتنم هذه الهفوة يهود الحجاز الذين دخلوا فى الدين الاسلامى ليفسدوه ويهدموا أركانه فطافوا الأمصار وقدم زعيمهم الأكبر عبد الله بن سبأ «ابن السوداء» الشام ليوغر الصدور مبشرًا بكلمات براقة منها: « إن معاوية يقول: المال مال الله إلا أن كل شىء لله يريد أن يحتجنه دون الناس ويمحو اسم المسلمين ويتلو الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [1] وقال أعجب ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد وكيف تعصون آل بيت نبيكم» ووضع أحاديث كثيرة وزور كتبًا ورسائل أرسلها إلى البلدان يؤلب على عثمان. فاختمرت الثورة ونضجت فى أفكار المسلمين فاشتعلت الفتنة واضطرمت فى كل الأقطار خلا سورية لأن معاوية كان ساهرًا يقظًا فحرج الثوار من مصر والعراق إلى المدينة ناقمين من أعمال عثمان ومطالبين بالرجوع إلى سيرة العمرين وبعضهم يقول: إن عليا أحق بالخلافة من سواه فانجلت هذه العاصفة عن قتل عثمان واختيار على مكانه وشذ طلحة والزبير وخدعا عائشة أم المؤمنين زوج النبى وخرجوا إلى العراق وخالفوا عليًا فحاربهم وظفر بهم «فى وقعة الجمل» فقتل الاثنان وأسرت عائشة[2] وأمتنع معاوية بسورية ولم يبايع لعلى وأخذ يتهمه بأنه رأس الضلالة وأنه هو الذى ألب على عثمان وأوى قتلته فاجتمع بنو أمية حوله وعاضده عمرو بن العاص على أن يعطيه مصر طعمة. فغضب على وهب لمقاتلته ومناجزته فالتقوا بصفين سنة ٣٦ هجرية

---

(١) سورة التوبة الآية ٣٤

(٢) الصحيح أن عليًا كرّم الله وجهه أعادها معزّزةً مكرّمةً إلى المدينة، فلم تؤسر.

واختلفت بينهم الرسل وتكرر السفراء طمعًا فى الصلح فلم يتوفقوا لخير. وفى سنة ٣٧ هجرية ابتدأت الحرب وقد أظهر جند الأردن شجاعة فائقة. ثم اتفقوا على تحكيم رجلين فصلاً للخلاف ورفقًا بالمسلمين فاختار معاوية عمرو بن العاص داهية العرب ورضى علي بأبى موسى الأشعرى. ولما اجتمع الحكمان وتفاوضا كاد عمرو أبا موسى وقال له لنخلع الرجلين حقنًا للدماء ويكون الأمر شورى فخُدِعَ أبوموسى وقام خطيبا فخلع الرجلين (عليا ومعاوية) ثم قام عمرو فخلع عليًا وأقرّ معاوية فلم ترض شيعة علي بهذا الحكم وافترقوا مختلفين. ومن هنا بدأ أمر علي يضعف ويضمحل وشأنه يسفل وشأن معاوية يعلو حتى قتله ابن ملجم وبايع جنده ولده الحسن ثم انتقضوا عليه فاستشار الحسن أخاه الحسين فى التنازل عن الخلافة فنهاه قائلاً « إياك أن تصدق أحدوثة معاوية وتكذب أحدوثة أبيك » فلم يسمع منهُ وخلع نفسه بعد ستة شهور من حكمه وبايع معاوية وسلم إليه الكوفة عاصمة أبيه فى آخر بيع الأول سنة ٤١هـ فسمى هذا العام «عام الجماعة» لأنهم أجمعوا به على خليفة واحد ولكنَّ الخوارج كثروا وعصوا على الخليفة فكان كلما قضى على فرقة تنبت أختها وظلت طوائفهم تتعاقب حتى حين. فالطوائف الشيعية والزيدية والدرزية والإسماعيلية والإباضية هى بقية أولئك الخوارج الذين تكونت نواتهم من نفثات ابن سبأ والذين حاربوا بنى أمية وبنى العباس وكادوا يهدمون الدين الاسلامى لولا أنه كان فتيًا ويقوضون الدولة العربية لولا عصبيتها القومية.

٣٤ - نبذة من تاريخ القرآن الكريم:

إن للقرآن أهمية كبرى فى توحيد كلمة العرب وفتوحاتهم العظيمة نذكر منها هنا شيئًا عنه:

نزل القرآن عَلَى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مدة ٢٠ سنة فكانوا يكتبونه على الرقاع وعظام الأكتاف وعسب النخل واللخاف أو يستظهرونه ويسمون حفظته الحفاظ.. ويقسم القرآن بحسب محل النزول إلى مكى ومدنى. أما باعتبار الناسخ والمنسوخ فله أقسام: قسم ليس فيه لا ناسخ ولا منسوخ وهو ٤٣ سورة الفاتحة، يوسف، يسين .. الخ. وقسم فيه الناسخ فقط وهو ست الفتح،

الحشر، المنافقون، الخ. وقسم فيه منسوخ فقط وقسم فيه ناسخ ومنسوخ وهو ٢٥ سورة البقرة، النور، الخ.

والنسخ على ثلاثة أضرب: أحدها ما نسخت تلاوته وحكمه، الثانى ما نسخ حكمه دون تلاوته، الثالث ما نسخت تلاوته دون حكمه وكل ذلك تم عَلَى عهد النبى صلى الله عليه وسلم فلما قُبض وارتد العرب وقتل أكثر الحفاظ فى غزوة اليمامة أشار عمر بن الخطاب عَلَى أبى بكر بجمعه فتردد ثم جمعه من تلك المخطوطات ومن صدور الرجال. وأبقوه عند أبى بكر حتى مات فأخذه عمر فلما قبض بقى عند ابنته حفصة وفى خلافة عثمان انتشر المسلمون فى كل الأقطار فذهب القرّاء فى تلاوته مذاهب شتى فشهد حذيفة بن اليمانى اختلافًا بين المسلمين فى قراءة بعض الآيات ورأى بعضهم يفضل قراءة أبى موسى عَلَى ابن مسعود فأنبأ عثمان بذلك وأنذره بسوء العاقبة فبعث إلى حفصة بنت عمر أن أرسلى الصحف لنسخها ونردها إليك فأرسلتها فدعا عثمان أجلة الصحابة وأمرهم أن ينسخوا القرآن ويستعينوا على القراءة بما حفظه القراء وقال لهم أن اختلفتم فى شىء فاكتبوه بلسان قريش ففعلوا[1] علوا ذلك سنة ٣٠ هـ وكتبوا ستة مصاحف فبعث عثمان بأربعة إلى الأمصار مكة والبصرة والكوفة والشام وأبقى اثنين فى المدينة، والمصاحف التى تتداولها الآن هى فرع عن ذلك.

كتب القرآن بلا شكل ولا إعجام حتى أيام زياد فوضع نقطًا لونها يخالف لون الكلمة (إعجام غير واف) ثم وضع أبو الأسود الدؤلى نقطًا ليتميز بها الاسم والفعل والحرف وربما اقتبس هذا من السريان أو الكلدان. أما صور الحركات التى وصلت إلينا وهى الضمة والفتحة والكسرة فقد وضعها نصر بن عاصم بأمر الحجاج بن يوسف وجعلها أفرادًا وأزواجًا. ثم أضيف إليها الحركات المماتة وهى الإمالة (e) والروم (ﻟ) والإشمام (ﻫ) فكانت لها أوضاع خصوصية وزيدت عليها علامات أخرى مقتطعة من كلمات تؤدى المعنى المراد نحو مدّ (ـٓ) شدّ (ـّ). ولكن حفنى بك

---

(١) ومن هنا تفرعت القراءات الشاذة والصحيحة فأبيدت الفاسدة ولم يبق إلا القراءات السبع وأشهرها قراءة حفص (راجع الاتقان).

ناصف قال فى كتابهِ حياة اللغة العربية: إن الشكل موجود قبل الإسلام وأسند حجتهُ بادلة وبراهين قاطعة.

ومن المسلمين من يعتقد أن القرآن قديم ومنهم من يقول إنه حادث. ومحدث هذه البدعة درهم بن الجعد، أما المأمون فقد امتحن العلماء القائلين بقدمه ونكل بهم المعتصم من بعده.

٣٥ - آثار الخلفاء الراشدين فى فلسطين

الأبنية التى على رؤوس الجبال قد حولوها مناظر (مناطير) وجعلوها يشرف الواحد منها على الآخر فإذا داهمهم العدو أنذر بعضهم بعضًا نهارًا بالدخان وليلاً بالنار فينتقل الخبر بسرعة كالتلغراف ويأتيهم المدد. ومن آثارهم تأسيس دور الضيافات وفرض عطاء للمجذومين وبناء الجوامع فى القدس ونابلس وبيت لحم وغيرها.

٣٦ - أبطال النهضة الإسلامية

إن جميع النهضات القومية والانقلابات الاجتماعية يتقدمها أعمال تمهيدية تسهل لها النجاح. فالانتباه الفكرى والنبوغ الشخصى ركنا النهضات. وقد نبغ فى الصدر الإسلامى أساطين عظام كان لهم القدح المعلى فى تكوين النهضة الإسلامية والدفاع عنها فجدير بنا أبناء الأمة العربية أن نرفع لهم التماثيل إقرارًا بفضلهم واعترافًا بعظمتهم وتنويهًا بأعمالهم لنشفى بهم النفوس المريضة ونداوى الهمم الضعيفة فنقتصر هنا عَلَى سير من فتحوا فلسطين وكانوا عاملاً كبيرًا فى إحياء الأمة العربية فنقول:

١ - عمر بن الخطاب

عمر بن الخطاب من بنى عدى بطن من بطون قريش وكنيته أبو حفص كان تاجرًا وله السفارة فى الجاهلية فإذا ما اختلفت قريش وقبيلة أخرى انتدبته وحده للمفاوضة ولا حق لسواه أن يشاركه فيها.

كان المسلمون ضعافًا حتى أسلم فاعتز الإسلام به وصحب النبى صلى الله عليه وسلم خير صحبة وكثيرًا ما نزل القرآن بما أشار به وشهد غزوات بدر وأحد والخندق وبيعة الرضوان. ولما ولى الخلافة قال: (اللهم إنى شديد فلينى وإنى ضعيف فقوّنى وإنى بخيل فسخنى إن رأيتم فىّ اعوجاجًا فقوّموه) فأجابه أعرابى قائلاً: لو رأينا فيك اعوجاجًا لقوّمناه بسيوفنا. فحمد الله الذى أوجد فى قومه من يقوّم اعوجاجه. وهو أول من وضع التاريخ الهجرى وفرض العطاء (رتب الرواتب) ودوّن الدواوين فأسس نظارة المالية والحربية والإعاشة وقسم البلاد إلى مناطق وعين عليها الأمراء ورتب الغزوات فى الشتاء (الشواتى) وفى الصيف (الصوائف) ورتب البريد مجانًا وأمر ببناء البصرة والكوفة وتخطيط شوارعهما بعرض ٢٠ ذراعًا والأزقة بعرض ٧ أذرع وحجر على المجذومين ومنعهم ملامسة الناس.

وأقام العيون (الاستخبارات) يوافونه بالأخبار وعين قاصًا (مفتشًا) يطوف عَلَى المأمورين ويحقق الشكايات سرًا وعلنًا ويحمل إليه ما وجده بالتدقيق. وأسس الحسبة (مجلس البلدية) لمشارفة الموازين والمكاييل ومراقبتها ولمنع الغش وتنظيف الأزقة والرفق بالحيوان فيجازى من حمله أكثر مما يطيق ويهدم البناء المحدث فى مجتمع السوق وحظر علَى الناس الازدحام فى الطرق وأمرهم أن يستروا الكنف وينحوا مثاعبها عن السبل. وكان إذا تكلم أسمع وإذا مشى أسرع وكان ديموقراطيًا لا فرق عنده بين الملك والسوقة وحارثة الملك الغسانى جبلة بن الأيهم مع الفزارى مشهورة وقصة عبد الله بن عمرو بن العاص مع القبطى ظهيرة وقوله المأثور (مذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهم أحرارًا) فكانت إدارته عرفية شديدة عادلة. كبح جماح الغطرسة البدوية وبنى عليها التساهل الحضرى.

كان يحب التجارة وحرَّض قومه على مزاولتها فقال: (لا تلهكم الرياسة وحبها يا معشر قريش لا يغلبنكم الغرباء على التجارة فإنها ثلث الإمارة) وكان إذا رأى فتى نشيطًا سأل عن حرفتهِ فإن قيل لا حرفة له هان عليهِ وكان يكره الكسول ويكره من يقطف رأسه إلى الأرض وكان يقول للقراء ارفعوا رؤوسكم ولا تكونوا عيالاً على المسلمين كان يكره التنطع فى الدين والولع فى الزهد فأمر

أن يعجل بإفطار رمضان وأن تمشى الناس مشية غيرناكسى رؤوسهم. وكان يقول للحجر الأسود إنى أعلم أنك لا تضر ولا تنفع. ولما أخذ الناس يعظمون الشجرة التى بويع تحتها النبى ﷺ قطعها وفى الحقيقة أنه من أعظم بناة الإسلام ومكونى الأمة العربية. وفى خلافته فتحت سورية والعراق وإفريقية ثم فجع أبو لؤلؤة العرب بقتله.

٢ – خالد بن الوليد

هو من بنى مخزوم بطن من بطون قريش كان قائد فرسان قريش فى الجاهلية (الأعنة والقبة) فلما أسلم أنفذه النبى ﷺ مع سرية زيد بن حارثة لغزو الروم فكانت موقعة مؤتة واستشهد فيها القواد إلى أن رفع المسلمون الراية إليه فأخذها وقاتل حتى اندق فى يده بضعة أسياف فسماه النبى سيف الله المسلول ثم اختاره أمير فرسان (سوارى) المسلمين وأبلى فى فتح مكة البلاد الحسن وهدم صنم العزّى وهو ينشد:

يا عزّ كفرانك لا سبحانك إنى رأيت الله قد أهانك

وفى غزوة تبوك بعثه النبى ﷺ إلى اكيدر دومة الجندل فأسره وكان ترسًا وسورًا للمسلمين. وبعد أن قُبض النبى ﷺ وارتد العرب وجهه أبو بكر لقاتلتهم فأسلم بنو طيّء قبل قدومه خوفًا منه ونهد إلى طليحة الأسدى الذى كان قد ادّعى النبوة ففلّ جيشه وهزمه وقصد (أم زمل) فقتلها وتفرق من معها وسار إلى بنى تميم وتخلف عنه الأنصار منتظرين أمر الخليفة فقال لهم خالد (أنا الأمير وإلى تنتهى الأخبار ولو أنهُ لم يأت إلىّ كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة فكنت إن أعملتُ بها الخليفة فاتئنى لم أعلمه حتى أنتهزها وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد أشاور قومى ثم أعمل. وها أنا قاصد ولست أكرههكم) فسار ثم لحقوه فقتل مالك بن نويرة أمير بنى يربوع وتزوج امرأته فغضب عمر وطلب من الخليفة أن يقتص منهُ فأجابه: ارفع لسانك عن خالد فإنى لا أشيم سيفًا سله الله لقد تأول فأخطأ. واستفحل أمر مسيلمة وادّعى النبوّة ونكب جيش عكرمة وهزم جيش

شرحبيل فرماه أبو بكر بخالد فذهب وقد خاف فرار من معه ففصل الأحياء عن بعضها ليظهر بلاء كل قبيلة عَلَى حدة. وبعد حرب شديدة هزمه وقتله ولما أن هدأت الثورة الداخلية أرسله الخليفة إلى أسفل العراق ففتح الأبلة ثم الحفير وقصد الحيرة فدفع إليه إياس الطائى ٩٠ ألف درهم جزية.

وقدّم إليه الفرس هدايا كبيرة فحسبها من الغنائم وأرسل خمسها إلى أبى بكر. وهزم الفرس عَلَى نهر الثنى وعند الولجة وعَلَى نهر الليبس فأتاه «الدهاقين» وصالحوه وسار إلى الأنبار ففتحها وزحف إلى عين التمر وامتلكها. وقد تضايق القائد عياض بن غنم واستصرخه فأجابه: (من خالد إلى عياض إياك أريد) فسار وهزم أمير دومة الجندل وأخذ الحصن وشرع يتمم فتح العراق إلى أن بعثهُ أبو بكر إلى سورية فأخذ معهُ نصف الجيش ومرَّ بتدمر وأتى المسلمين فى اليرموك فوحَّد قواهم وخطب فيهم وعَبَّى الجيش تعبية فنية وبعد قتال عنيف هزم الرومان ولم يقم لهم بعدها قائمة ثم ذهب إلى دمشق وفتحها وبعد أن عزله الخليفة عمر عن الإمارة العامة دخل صنوف المسلمين كجندى وحارب فى بيسان ورجع إلى سورية فافتتح البقاع وفتح قِنسرين وصالحه أهل حلب وفتح مرعشًا وخرب حصنها حتى لا يعتصم به أهلها.

فدهش أمير المؤمنين من أعماله العظيمة وقال: (عجزت النساء أن تلدن مثل خالد لقد أمَّر نفسهُ يرحم الله أبا بكر كان أعلم منى بالرجال).

ثم استدعاه إليه وترضاه فعاتبهُ خالد بكلام قاس فأجابهُ عمر (ما عزلتك لريبة فيك ولكن اقتتن بك الناس فخفت أن تفتتن بهم) وكتب بذلك إلى الأمصار وهى أعظم شهادة لحفظ كرامة خالد الذى ثل عرش الأكاسرة ودك أرائك القياصرة ولما ائتهُ الوفاة قال عند احتضاره (لقد شهدت مائة زحفة أو زهاءها وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة وها أنا أموت عَلَى فراشة كما تموت العير فلا قرت أعين الجبناء) وفى الجملة فإنه رجل الإسلام وقامع الردّة وبطل اليرموك ولو أردنا استقصاء أخباره لطال بنا البحث فلنترك تحليل هذه الروح العظيمة إلى نباهة القراء واستنتاجاتهم.

٣ - أبو عبيدة

هو عامر بن عبد الله بن الجراح ويتصل فى فهر بنسب النبى ﷺ الذى لقبه أمين الأمة وهو أحد العشرة الذين بايعوا النبى وفى وقعة بدر كان أبوه مشركًا فتصدى له وهو يحيد عنهُ ثم قتله وهذا من أعظم الإيمان وأثبت المبادىء الصادقة والعقائد المتينة التى لا يحول دونها شفقة ولا حنان وقد اختاره الفاروق قائدًا عامًا لجيوش سورية فقام بوظيفتهِ خير قيام وكان محترمًا فى قومه مستشارًا فيهم رفيقًا بضعفائهم معروفًا بالرأى والدهاء. سلمت إليه طائفة من دمشق صلحًا وحاصر فلول اليرموك فى بيسان وحاربهم فى فحل فأجهز عليهم. وسار إلى حمص ففتحها صلحًا وسلمت إليه معرة النعمان وحماة وامتنع أهل اللاذقية فاحتال عليهم وأمر بحفر سرب فى الأرض يستر الفرس والفارس وأظهر لأهل المدينة أنهم انصرفوا ففتحوا الأبواب وخرجوا فلم يرعهم إلا ظهور المسلمين من كل جانب ودخلوها عنوة وفتح أنطاكية مرتين وكانت مشحونة بالمقاتلة ووضع فيها جيشًا يرابط الأعداء لوقوعها عَلَى الحدود.

ولم تطب نفس هرقل عن الفتح فعاود الكرة وفاجأ العرب بجند كثيف فخطب أبو عبيدة فى قومهِ قائلاً: (أيها الناس هذا يوم له ما بعده أما من حى منك فإنهُ يصفو له ملكه وأما من مات فله الشهادة ولا تكرهوا الموت. فإنهُ خير من حيلة المغلوب).

ولما طعن عمر قالوا له استخلف يا أمير المؤمنين فقال: (لو كان أبو عبيدة حيًا لاستخلفته وقلت لربى إن سألنى سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة).

وقد توفى فى طاعون عمواس ودفن فى غور بيسان وله أوقاف كثيرة وبنى مشهده الملك الظاهر بيبرس وأوقف عليه بلادًا وأرضًا واسعة.

٤ - عمرو بن العاص

هو من بنى سهم بطن من بطون قريش وكان يعير بأمه لأنها سبية ولولا هذا الحيف الذى لحقه لزاحم على الخلافة. كان جزارًا وتاجرًا وله مكانة سامية عند قومه لشهرته بالكيدة واختراع الحيلة وكان يلقب داهية قريش.

تأخر إسلامه ولكن حسنت صحبته وقاد سرية ذات السلاسل وفيها أبو بكر وعمر وكانت ليلة قِرّة-شديدة البرد-فكلمه أبو بكر كى يسمح للعرب بوقود النار فأجابهُ لايوقد أحد منهم نارًا إلا ألقيتهُ فيها فشكوه إلى النبى ﷺ فقال: إنى كرهت أن آذن لهم بوقود نار فيرى عدوهم قلتهم ويعطف عليهم فحمد رأيه وأرسله عَلَى صدقات عمان فلما قُبض النبى أقبل فنزل بقرّة ابن هبيرة فأكرم مثواه ولما عزم على الرحلة خلاَ به قرة وقال: إن العرب لا تطيب لكم نفسا بالإتاوة «الزكاة» فإن أعفيتموها من أخذ أموالها تسمع لكم وتطيع وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم فقال له عمرو: (أكفرت ياقرة أتخوفنا بالعرب؟ فوالله لأوطئن عليك الخيل فى حِفْش[1] أمك).

وأعماله فى فلسطين درجناها ملخصة فلا حاجة لإعادتها. كان شديد التطلع إلى مصر فهوَّن فتحها للخليفة عمر حتى أذن له فسار بأربعة آلاف جندى ثم تبعته النجدات ففتح الفرما وبلبيس وأسر بنت المقوقس فجهزها وأعادها إلى والدها فسر بذلك وصالحه ولكن هرقل رفض الصلح فأقبل المقوقس إلى عمرو وعرّفهُ أن الملك كره ما فعلت وأمر الروم بقتالك ولكننى لا أخرج مما دخلت فيه وإنما سلطانى علىَّ وعَلَى من أطاعنى وارفق بالقبط فإنهم أعوانك فجمع عمرو عدتهِ وهاجم الفسطاط فامتلكه وبث قواده فشرعوا يفتحون المدن والبلدان إلى أن تم له الفتح وقد تألف قلوب القبط فأعاد بطريركهم بنيامين الذى نفاه الرومان إلى منصبه ولم يقتصر عزمه عَلَى فتح مصر فقط بل جهز جيشًا واخترق الصحراء من النيل إلى البحر الأحمر ووصله إلى بركة التمساح. ولما أصاب أهل الحجاز مجاعة عام القحط والرَّمادة طلب منهُ الخليفة زادًا فكتب إليه (أما بعد يا لبيك ثم لبيك قد بعثت إليك بعيرٍ أولها عندك وآخرها عندى والسلام).

وهو الذى أبطل تقديم عروس النيل ولقد وصف مصر فقال: (مصر تربة غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر يكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى

---

(١) الحفْش: البيت الحفير القريب السقف من الأرض - والبيت الصغير من بيوت الأعراب - المعجم الوسيط.

الشمس والقمر له أوان يدرّ حلابه ويكثر عجاجه وتعظم أمواجه فتفيض عَلَى الجانبين فإذا تكامل فى زيادته نكص عَلَى عقبة كاول ما بدأ فى جريتهِ وطما فى ردته فيخرج مُحْفِرُوه يحرثون بطون الأرض ويبذرون بها الحب فبينما هى لؤلوة بيضاء فإذا هى عنبرة سوداء فإذا هى زمردة خضراء فإذا هى ديباجة زرقاء فتبارك الله أحسن الخالقين).

ولما صرفه عثمان عن ولايةِ مصر حقدها عليهِ وحرك لسانه فاعتزل السياسة وسكن الرملة إلى أن حدث الخلاف بين على ومعاوية فكان من أكبر أنصار الثانى وأعظم أعوانه ومستشاره فى صفين وأحد الحكمين الظافر الذى ظل يمهد لمعاوية السبل ويسهل له الصعاب إلى أن أفل نجم على وتكمشت حدوده فأخذ طعمته مصر وتملكها (ومن شاء الزيادة فليراجع ترجمة عمرو بن العاص تأليف حسن إبراهيم حسن).